١٩ مارس

قصة بوليسية جامعة

للقصصي الروسي بوريس فيليبوف

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

وصلت مدينة جنيف عند الظهر في ذلك اليوم الذي لاأنساه ، وكان المطر نازلاً من السماء كما لو كان هابطاً من أفواه القرب التي أفلتت من أيدي السقائين ! مطر أحمر ممزوج بتراب قرمزي كأحسن ما يصنع المصورون لتلوين لوحاتهم . مطر ثقيل غزير كحبات كبيرة من العقيق الأحمر الذي يؤتى به من بلاد العرب السعيدة ، ليجعلوه أقراطاً للنساء وحلية لخواتمهن . مطر غريب بلون الدم السائل من جراح الملائكة في معركة حامية وراء السحاب . مطر لم ير أهل المدينة مثيله ولم يعلموا تعليله . وكنا على أعتاب الربيع ، أليس هذا عجيباً ؟ هل يدل على الخير أو الشر ؟ ؟ لم أكن أعرف الطيرة ، فلم أكترث وجلست أرقبه وأزدرد غدائي في مطعم روسي بشارع كوراتري كان يأوي إليه دقنسكي وكارتفسكي وأوليانوف وغيرهم من المهاجرين ؟ ولكنني لم أجد أحداً منهم لأنهم لايردونه إلا وقت العشاء . أما في تلك الساعة فكانوا لاشك في سُرُرِهم يغطون في نوم عميق ، لأنهم يقضون معظم ليلهم في الثرثرة وشرب الشاي وانتظار الفرج في المستقبل القريب ... أو البعيد ... فلم أجد أحداً ألهو بالحديث إليه سوى خادمة المطعم ، وهي الأخرى روسية حسناء ... بنت جنرال أو أمير بحر في خدمة القيصر وقد تركت الأهل والأوطان لتنشد الحرية في الغربة وهي أبية أشد الإباء ، عفيفة حتى عن الحلوان الذي يجود به الطاعمون . فلم أجد ما أقوله إلا أن أسألها عن نزل أحط فيه رحالي ، ولو إلى حين . ولما خاطبتها بالروسية ابتسمت وغضت من بصرها ، وأجابتني بالفرنسية : إنها لا تفهم اللسان الذي كلمها به ! ! لتخفي شخصيتها وتظهر كرامتها ؟ ولكن لم يكن أصلها وجنسها ليخفيا على أحد من أهل وطنها . فهذا الجمال البارع والقد الفارع والشعر الذهبي والأعين الفيروزية والبشرة الناصعة ، لا تكون لواحدة من بنات أوروبا الغربية . وأخيراً أخذت أسأل نفسي أتكون تلك الصبية بغير حليل أو خليل ؟ وهل تعيش على الخبز والمثل الأعلى ، ولا تشعر بحاجتها إلى الحب ؟ وكان المطر ما زال هاطلاً ، وكنت انتهيت من غدائي ، ولم يبق لي إلا أن أنصرف . فقالت لي :

— عليك بنزل راسين في خطة سان جورج ، تركب إليه مركبة الكهرباء من ميدان بليره على قيد خطوات من هذا المكان ، فتقف ببابه

فنهضت وودعتها ، وأخذت سمتي إلى موقف الترام وانتظرت تحت سقيفة من الخشب المطلو باللون الأحمر ؛ غير أن المطر جرف اللون فازداد حمرة وهو يتساقط في خيوط متواصلة كأسلاك من

النحاس الأحمر متصلة بين السماء والأرض . كانت مركبة الكهرباء خالية إلا من راكب واحد ، شأنه المنظر ، شره العين والأذن ، رث الهيئة أخذ يرقبني عن كثب ، ويتظاهر بالقراءة في « جورنال دي جنيف » وهو لا يقرأ في الواقع إلا صحيفة وجهي ، ولا يدرس إلا ثيابي يحاول أن يتفهم شخصيتي من ألفي إلى يائي ... وكان الخبيث يرهف أذنيه ليتسمع الحديث بيني وبين نفسي ؛ فلما أعطاني الملتزم تذكرة ونقدته ثمنها ، أخذ يسأله ويتلقى جوابه في حذر ، وقد كان بلا ريب يسأله عن الناحية التي أقصد إليها ، ولكن بائع التذاكر خانه بنظرة في اتجاهي ، فحنق الراكب اللئيم القذر عليه وغضب وأدار وجهه ولزم الصمت حتى ظننته مجنوناً فأخذت أقرأ في كتاب ، ولم آت على صفحة كاملة حتى اهتديت إلى حقيقة الرجل أو ماظننته حقيقة أمره . لا بد أن يكون جاسوساً روسياً يتعقبني كعادتهم : يتعقبون كل شاب روسي في البلاد الأجنبية ... خصوصاً إذا كانت ميوله مجهولة ... آه فطنت الآن فقط ! هذه البنت الملعونة خادمة المطعم لابد أنها «أرشدته» إليّ بعد أن وجهتني إلى المكان الذي تريده ، لأبقى تحت مراقبتهم . إذن هي قعيدة الجواسيس وكبيرة المخبرين وشيخة « البصاصين» في هذه البقعة . وها قد وقعت أول ما وقعت في فوهة البركان ، أو بين فكي الأسد ! لله ما أذكاني وما أيقظ شعوري ! لقد دلني قلبي على الفخ الذي يجب أن أسقط فيه ... ولكن علامَ هذا الاضطراب وتلك الوسوسة ؟ أمطلوب أنا لحكومة القيصر ؟ أم أني فوضوي أو ثائر خطر ؟ لا هـــذا ولا ذاك ... لست «مشبوهاً» وليس في تاريخي تهمة تقتضي التقصي والاقتفاء . ولكن ماذا تصنع لتلك الحكومة التي لاتعيش إلا في ظل جيش عرمرم من الجواسيس ، ولا تكتفي بمراقبة الرجال ، بل أشباه الرجال وأشباح الرجال ... دع عنك أن شعورك بأنك موضع الريبة ومثار الشكوك يشل حركتك ، ويعرقل سعيك ، ويربك أعمالك ، ويقصي الناس عنك . فماذا أنا فاعل إذاً ؟ بلغت المكان الذي أقصد إليه ، وكان هـذا الفظ الثقيل في أثري ، يتحرى اسمي ولقبي وسني وصنعتي ومقصدي ومصدري وموردي ، ثم أقع في عش زنابير ، تُعدُّ فيه أنفاسي ، وتقاس خطواتي ، وتلتقف كلماتي ، وتعبث الأيدي بأوراقي ، وتختلس صوري ، وتنتهب نظراتي ، ويسترق السمع من وراء أبوابي ونوافذي ؛ إنها إذن حياة لا تطاق وعيشة بغيضة وسجن لايحتمل . فماذا أنا صانع لأضال هذا الوغد الذي لم يؤت من « الفن » ما يكفي لإخفاء أمره على فريسته ؟ تميت لو لم أكن روسياً من مواليد ١٩ مارس سنة ١٨ بمدينة كييف بثغر مقاطعة يادولي ... وعند ذلك ذكرتُ أن اليومَ عيد ميلادي ، وأنني جئت جنيف لأرى الشمس وأزهار الربيع وزرقة الماء في البحيرة الشهيرة ، وقمة الجبل الأبيض المعتمة بالجليد . فإذا بالشمس محتجبة وراء براقع سميكة من الغيوم المتراكمة ، وإذا السماء تمطر ماء أحمر كالدم القاني ؛ أما الأزهار فقد انثنت أعناقها وطأطأت رؤوسها ؛ وإذا بي أقع في مخالب تلك الجاسوسة الحسناء التي أسلمتني بغير جريرة ولاذنب لذلك « المخبر » المنهتك في حرفته الحقيرة ... فياله من عيـد ميلاد سعيد ! ويا ليتني بقيت في لوزان العزيزة ، آمناً في سربي ، مطمئناً في غرفتي ، محاطاً بعناية مدام بروشيه التي لا عيب فيها إلا ثرثرتها !

فأين أنا منها الآن ! وأين هي منى فى تلك الغربة الموحشة وليس بينى وبين بيتى الذى آوى إليه فى « أفينوديز آلب » إلا بضع ساعات فى القطار . وأخيراً فكرت فيما ينجيني من الخطر ويضيع على هؤلاء الشرار جهودهم . وطال تفكيرى ، ثم هدانى إلى النزول عند الوقفة الأولى كمن بلغ غايته فإذا تبعنى « نغل الذئاب[1] » الذى يقتفينى بأمر « خضراء الدمن » التى باعتنى بغير ثمن ولا ثأر ولا حقد مبيَّت ، فأسأله عن علة تتبعى ، فإن لم أتخلص منه بهذه الطريقة السهلة أستغيث بالشرطي وأصمم على اقتياده إلى مقر الجند ، لأقف على داعى تجسسه . فإن تجابهة الخطر وتمجل الحوادث ولو كانت مُعقدة خير من الخوف ولو كان خياليًّا ، وأروح للنفس من القلق ولو أنه من ثمرات الذهن الـكليل ...

وقف الترام ونادى « الملتزم » : سان جورج . بتى لانسى . القرافةوالبستان — كامبانى راسين ! ! آخر الخط — ترمينوس

ولم يكد الـكمسارى ينعق بتلك الأسماء متتالية حتى أسقط فى يدى ووقفت كل شعرة فى بدني — لا رُعباً ولا فزعاً — ولـكن غضباً وغيظاً . ونزلت مرغماً ؛ وقبل أن أستدير رأيت الرجل يدنو منى فى أدب وخجل لم أعهدهما منه فى المركبة ، وقد كشف عن رأس أصلع لامع كقشر الرمان ناعم كبطن الأفعى أجرد كالصحراء وقال :

لعل سيدى يقصد إلى نزل راسين ؟

— وما شأنك أنت إن كنت أقصد إلى تلك الحفرة من جهنم أم لا أقصد إليها ؟

— شأنى ؟ أنا صاحب النزل ياسيدى ، وسترى أنه ليس حفرة من جهنم بل روضة من النعيم ...

— ولماذا كنت تقتفى أثرى منذ ركبت الترام ؟

— توسمت أنك سيد غريب تريد الإقامة فى مكان هادىء فأردت أن أؤدى خدمة لك ... ولنفسى . تفضل أولاً بالدخول لتستريح من وعثاء السفر ، فآثار التعب بادية عليك . وعندنا حمام مستعد ومائدة لا تخلو من الطعام الشهى . وكان المطر الأحمر لا يزال يهطل ولـكنني لم أكن أبالى .

وفى تلك اللحظة أطل من باب الشرفة طفلان كالملائـكة وقالا فى نفس واحد :

— بابا . أدخل وادع السيد معك ولا تتلقيا هذا المطر الأحمر الفظيع ، إنه كالدم ! فقال الرجل «بونجور فرد ! بونجور فيجو !» فقالا فى صوت واحد « بونجور بابا » فسرى عنى وقلت لنفسى : لا يكون هذان الطفلان من أعوان المؤامرة علىّ ، فإنهما أطهر من أن يكيدا لغريب . البيت الذى فيه أطفال مأمون العاقبة . ثم ألقيت بنظرة أخرى فإذا الأشجار الباسقة تظلل المدخل ، والزرع الأخضر المخضل بالمطر الأحمر قد اكتسى حلة غريبة يعجز عن التفنن فى تأليف ألوانها أمهر المصورين . فدخلت وصعدت الدرج والرجل يسبقنى ببضع خطوات . ولم أكد أصل إلى الردهة حتى تقدمت إلىّ خادم وتناولت عصاى ومعطفى وقبعتى وخلعت بيدها حذائى (كما لو كنت فى بيت أهلى فى روسيا) وتقدمنى راسين نفسه (جاسوس الترام) إلى الحمام حيث الماء الدافىء وصابون جولدفلور الذى أفضله

(١) خير تعريب لـكلمة mouchard الفرنسية

على سائر أنواع الصابون وفوطة نظيفة وقنانى وأحقاق وأدوات زينة كاملة العدد . وقال لى وهو يغلق الباب وراءه : سيكون الشاى معداً عند خروجك . وإذا كان لديك متاع فى « مستودع الأمانات » بالمحطة ، فما عليك إلا أن تعطيني رقمه لنحضره بالتليفون ونسلم الوصول لحامله بعد نقد أجره ، فما دريت إلا وأنا أسلمه الوصول بيدى فابتسم وانحنى وقال « شكراً سيدى » كأمهر خادم فى أرقى فندق ...

فأقلقتنى هذه الابتسامة الخبيثة من ذى الوجه المشوه والرأس الجدب . ولكن أدبه وصوته كانا يناقضان تشويهه ودمامته ، فما رأيت مخلوقاً بعضه يكذب بعضه غير هذا الرجل : راسين ذى العينين الزرقاوين واللعاب السائل والشعر الأشقر اللعين . ولكنه لم يمهلنى حتى أفكر فى دمامته ، واتصل كلمح البرق بمخزن الودائع اتصال المتعود ، وكلف الموظف بارسال المتاع على جناح السرعة ...

وبعد برهة قصيرة كنت جالساً إلى مائدة أنيقة أشرب الشاى وأتذوق الفطائر اللينة الدسمة . واختفى راسين ، فظننته منكباً على تدوين تقرير مفصل ليرفعه إلى رؤسائه !

وفيما أنا أشرب الشاي مشرد الفكر ، غير عابىء بلذة الراحة بعد التعب والرى بعد الظمأ بقدر انشغالى بما ينتظرنى على يد هذا الجاسوس المتطرف أطلّت « فيجو » وأخوها « فرد » من باب الغرفة وحيياني تحية الود

فاستدرجتهما بناعم القول ، وسألتهما عن السيد الذى قالا له « بابا » وكنت أظن حتى تلك اللحظة أنهما يمزحان أو يمثلان دوراً تلقناه .

فهمسا — وقد استولى كل منهما على أذن من أذنى — انه لايستطيع أن يدخل إلى قاعة الاستقبال مادام فيها ضيف ، هذا تنبيه ماما عليه ! وهو لايستطيع مخالفتها وإلا ... برر ... برر ...

وأخذ الطفلان يغردان فى أذنى ويلعبان أمامى كالطيور الصغيرة المَرِحة .

وبعد برهة سمعت صوت الحمال ورأيت حقائبي تحمل إلى أعلى الدار ، ولم يطلب أحدٌ مِنى حِساباً ، وجاءت جانيت تخبرنى أن غرفتى قد أعدت وأن متاعى قد نقل إليها فما علىّ إلا أن أصعد ريثما تعد لى الحمام الدافىء كأمر سيدتها مدام راسين . فتركت الطفلين وتبعت خطاها إلى غرفة رحبة أنيقة الأثاث شرقية شمالية تدخلها الشمس ويتخللها الهواء ، وكان المطر الدائم لم ينقطع ، والغرفة مطلة على الحديقة تتراءى للناظر من نوافذها مباهج البستان وتسمع منها أجراس كنيسة عتيقة ، تخفى وراء أبراجها الضخمة المناظر الأخرى التى ورد اسمها على لسان الملتزم فى الترام ...

ففتحت جانيت الحقائب وصففت الثياب فى مواضعها من الصِّوان وأطلقت سراح الكتب التى كانت كالأسرى مكتوفة الأيدى مكتومة الأنفاس فى ظلام الصناديق وتركتنى لتعد الماء الساخن . وبعد فترة كنت أختال في ثياب جديدة وبدت علىّ نضرة النعيم وألقيتُ نظرة على كتبى ، ولكن قلبى اضطرب واستولى علىّ القلق مما يدبره لى ذلك الأصلع اللعين . وزادنى جزعاً أننى لم أجد فى المنزل أحداً سواى . ولم أعهد فندقاً يخلو من القيمين

والراحلين غير هذا . وبعد أن أجلت الطرف فى الأشجار سمعتُ دقات جرس وجاءت جانيت تنبئنى بحلول موعد العشاء وهو فى السابعة — وقد تعودت أن أتعشى فى لوزان قبيل التاسعة أو بعدها بقليل فانحدرت على مهل أنزل الدرج وأفكر فيما عسى أن يحدث لى

ولم أكد أصل إلى غرفة الطعام حتى دخلت علىّ سيدة فى الثلاثين من عمرها لم ترَ عينى أجمل منها ولا أبدع وأروع . وقبل أن أتمكن من استجلاء روائها وأمتع الطرف بمنظرها الفتان بدرتنى بالتحية والابتسام ، ودعتنى إلى الجلوس على رأس المائدة كأننى صاحب الدار ، وجلست إلى يمينى في ثوب من الحرير الأزرق وحول عنقها عقد من حجارة زرقاء كريمة ، وفى أذنيها قرطان من الياقوت. ولما كان الجو لايزال رطباً من أثر المطر واحتجاب الشمس فى ذلك اليوم — عيد ميلادي ١٩ مارس — فقد وضعت على كتفها شالاً من الحرير الأبيض ، وتعطرت بخلاصة الأزهار فتأرج منها الطيب منعشاً مغرياً خلاباً

واندفعت تتكلم وتضحك حتى لكأنها عرفتنى منذ الصغر

وبعد برهة دعت بولديها فرد وفيجو فجلسا على يسارها ، وجاءت الخادم (جانيت) بوعاءين من الحساء فقالت ربة الدار : هذه خلاصة اللحم ، وتلك خلاصة الخضر والبقول ، فأيهما تفضل ؟ فإن لدينا طعاماً لكل ذي ذوق . أما أنا فأختار لك خلاصة اللحم لأنها تقويك . فلم أخالف لها إشارة لأنها كانت تتكلم بلهجة الآمر الناهي الذى تعود أن يُطاع . وبعد هنيهة دخل الغرفة فى ذل واستخذاء — يجر رجليه ويتلفت خلفه وينظر نظرة الوجل والحذر — راسين — جاسوس الترام — فجلس فى طرف المائدة — فقالت له السيدة :

— دائماً متأخر ؟

فأجابها بصوت الطفل المذنب :

— عفواً ياعزيزتى . فقد كنت ...

ولكنها لم تمهله حتى يتم كلامه ونظرت إلىّ باسمة ساخرة وقالت :

— حضرته زوجى مسيو راسين . ثم دفعت بوعاء الحساء فى ناحيته فنهض ومد ذراعيه كالعابد المنتظر الالهام ، وصرفت السيدة نظرها عنه كما يصرف رب الدار اللئيم نظره عن ضيف ثقيل أو زائر متطفل . وأخذت تؤنسنى وتقدم إلىّ الطعام وتنقله من الصحفة إلى أطباق مختارة ألذه وأدسمه وأشهاه وهى لا تداعب طفليها إلا قليلاً . وتناولت قنينة من البلور فيها ماطاب من نبيذ الكروم الغنية ، وسكبت فى قدحى من ياقوتها ورأيت راسين ينظر إلى دورق البلور وقد لمعت أضلاعه وكواكبه بنور الكهرباء وحمرة الخمرة ، وهو يداعب كأسه بأنامله يريد أن يملأها ، فاقترحت أن يشاركنا فقالت :

— إن زوجى لايشرب النبيذ فقد نهاه الطبيب . أليس كذلك ياراسين ؟

فقال المسكين مغمغما : نع ... نع ... م ياعزيزتى

ولم يطفىء المسكين ظمأه إلا بالماء القراح الذى لا طعم له ولا رائحة ولا لون ...

ولما جاء دور الفاكهة تناولت سيلين (وكان

هذا اسمها) برتقالة وقشرتها وفصلت فصوصها عن بذورها بمهارة وأضافت إليها السكر وعصير الزهر وقدمتها إلىّ مبتهجة ، ودحرجت لزوجها برتقالة مريضة صفراء مجمدة . ولو كان فى البرتقال إناث عوانس لكانت منها تلك التى زفت إلى راسين .

ونهضنا عن المائدة وانتقلنا إلى غرفة الجلوس ، فسارت أمامي ، لا لتتقدمني ولكن لترَيني قدّها وثوبها ينحدر من خصرها الناحل إلى كثيب أردافها المتزنة ...

وأخذت مكانها بجانب البيانو بحيث أرى وجهها وأسمع صوتها وأمتع الطرف بأناملها الدقيقة الطائلة وهى تداعب مفاتيح العاج ، وأخذت تعزف أنغام « حديقة بللها القطر » من أطرب ما ألفه « تشيكوفسكى »

وفى أثناء العزف دخل راسين يتسلل كالجرذ المسلوخ بصلعته البراقة التى أشبهت فى نظرى مؤخر قرد عتيق ، فلم أستطع أن أكتم ضحكى فوقفت سيلين ونظرت إلىّ قائلة :

هل يضحكك عزفي ؟

فقلت : لا ...

فنظرت إلى زوجها وقالت : أنت هنا ؟ ألم أقل لك أن ترقد الأطفال أولاً ؟ فقال : لقد ذهبا إلى جدتهما ليلهوا بحديثها قبل النوم

فقالت : هذا حسن ، تعلم أننى أصير فريسة أعصابى إذا غنيت فى حضرتك ثم لا تفارقنى ؟

فقلت لها : ذريه يا سيدتى يؤنسنى فى السهرة الأولى . فنظرت إلىّ وسكتت على مضض ، وجلس الرجل مكتئباً منقبض النفس . فقالت سيلين :

— خير ... ما دام السيد ومالت إلىّ تريد أن تتعرف اسمى فقلت : جوديل ستارسكى من كييف يا دولى — طبيب فى طريقى إلى باريس وبرلين . فأبرقت أسرتها وتهللت وتركت البيانو ، وجلست أمامى وقالت لزوجها من جديد :

« ما دام السيد الطبيب يشفع لك فى هذا اليوم وهو عيد ميلادى ، فقد ولدت فى ١٩ مارس سنة ١٨٠٠ وقد نسيت أن تقدم إلى هدية ...

فأردت أن أنقذ موقف راسين الذى تحول بغضى له شفقة عليه ، وقلت :

— عيد ميلادك ١٩ مارس ؟ يا للعجب !

فقالت : وأى عجب فى ذلك ؟ ألأن المطر كان أحمر ؟

قلت : كلا ، بل لأنه عيد ميلادى أنا أيضاً

فاحمر وجه المرأة وانفعلت ولمعت عيناها ، وقالت: إنه عيد سعيد حقاً .وقال راسين : كنت أنتوى أن أتفرغ لانتقاء هديتى إليك ولكن تدبى السيد وتطوعى لارشاده إلى النزل أنسانى

فقلت : لا عليك يا راسين فقد عفوت عنك

فقالت : أنا الكفيل بهدية العيد لهذه المصادفة السارة

وتجاهلت سيلين وجود زوجها وانصرفت بفكرها ونظرها وحواسها إلىّ ، وكأنها عرفتنى منذ طفولتها فأخذت تحدثنى عن ماضيها ونشأتها فى أسرة غنية ، وكيف أن أباها كان يثير الاعجاب والحسد بما يعمله فى يوم ميلادها إذ كان ينفق المال بغير حساب ، ويوزع الهدايا والتحف على الجميع . وكانت تسخر من زوجها سخرية

جارحة بين الحين والحين ، وترميه بنظرات أحد من الخناجر وأحمى من الشرر وهو يطأطىء الرأس ويغضي البصر . كان حبه لزوجته نوعاً من العبادة المكتومة التي يكنها الرقيق المحروم لمولاته المعبودة

وقد أدرك الزوج المسكين أن الهفوة الصغرى أو الاهمال غير المقصود أو اللفظ في غير موضعه تفقده البقية الباقية من صبرها عليه فتطرده من البيت أو تقطع عيشه في غير رفق أو تصادره في رزقه وتحرمه على الأقل رؤية ولديه (؟) فكانت حاله حال المسكين الذي يراقب مسلك نفسه ويخشى أن يخطىء فينفى ويحرم

وكانت سيلين تتكلم وتلهو وتمزح وأنا في شغل شاغل ، أقول لنفسي : « أتكون هذه الأسرة من الفطنة وسعة الحيلة بحيث تمثل هذه الأدوار البارعة لاستدراجي ونقل أخباري ؟ »

وفي الساعة التاسعة نهض راسين وتقدم إلى زوجته وقبل يدها ، وحياني بانحناء صلعته الجريئة وخرج يتعثر في أذيال الاستكانة والصغار

وعند ما رأت سيلين ظهره قالت : أف !!

فقلت لها : ليس من حقي أن أسألك وأنا ضيفك وقد أبى أدبك وكرمك أن تسأليني عن هويتي قبل أن تقبليني في بيتك ولم تعرفي ما أدفع لإقامتي

فاحمر وجهها وكادت تصرخ في وجهي ولكنها ملكت نفسها وقالت :

لم أنتظر أن تحكم عليَّ بالضعة حتى هذا الدرك ولكنك معذور لأنك لا تعرفنا ... ومرت بعينيها غيمة رأيت فيها أثر دموع جهدت في احتباسها وقالت :

— كنت تسألني شيئاً فأكمل حديثك

قلت لها : هل هذا الرجل زوجك حقاً ؟

فأطرقت برأسها ، وقالت : نعم

قلت : وهل هو والد هذين المسكين البريئين ؟ فرد وفيجو ؟

قالت : نعم

قلت : ولماذا تعاملينه بتلك القسوة ، وتمزحين على ظهره مزاحاً أليماً في حضرة رجل غريب وأنت المهذبة المثقفة ؟ حقاً إن جمالك وظرفك وذوقك كانت خليقة برجل أجل وأرقى وأعلم وأكيس ولكن ما دمت رزقت منه ولديك أما كان الأجدر بك ... فقاطعتني قائلة :

— وهل ولدت حقيقة في ١٩ مارس ؟

قلت : نعم

قالت ولم تملك دموعها في هذه المرة :

— كنا أغنياء وهذا البيت الذي تراه معداً لنزول الغرباء كان أحد قصورنا الخلوية ، وكان أبي من أغنى أصحاب مصانع الساعات في هذه القاطعة وهو الذي اخترع ساعة الهيكل الشهيرة ؛ فبعد أن بلغت الثامنة من عمري مرضت وفقدت السمع والنطق ؛ فلم يدخر أبي وسعاً في علاجي وأنفق نصف ثروته على الأطباء والدجالين والصيادلة والمشعوذين ، ولكن راح المال على غير طائل ؛ وبعد أن كنت طفلة جميلة ساحرة ذوي جمالي وصرت شبحاً أصفر اللون ؛ وبعد أن كنت نامية نمواً حسناً فرهة أسير نحو الأنوثة الناضجة بقدم ثابتة وأمل لامع ، أمسيت مخلوقة بلهاء لا أعي ولا أدرك . وانطفأ نور الذكاء من عينيَّ وانقطعت صلتي بالعالم

والناس ، وصرت أداة حية ولكنها معطلة . وبلغت العشرين وأنا على تلك الحال بعد أن جف ماء الحياة من عودى ، وذبلت نضرة الجمال من وجهى ، وانقلبت محاسنى دمامة لا تطاق

فأشار قسيس الحى على أبى أن يزوجنى قبل أن تفوت على تلك الفرصة من العمر فأمسى عانساً خرساء صماء تتقاذفنى أمواج الحياة القاسية . ولم يكن أبى يفكر فى أحد من ذوى المكانة التى تدانينا ، فاحتواه اليأس حتى كاد يقتله ، فدله القسيس على شاب كان يخدم فى الكنيسة ، وينظف مقاعدها ويفتح نوافذها ويغلق أبوابها ويعدها لصلاة الجماعة يوم الأحد . وكان من أسرة طيبة قعد بها الدهر . فبكى والدى وكاد يغمى عليه من الحزن . أما والدتى فكانت فى ذهول لا رجاء فى إفاقتها منه

وأخيراً . تم الزواج

فقلت : وكان هذا الرجل راسين

فقالت والدموع تخنقها : نعم ! ولكن بعد الزواج بأسبوع واحد حدثت المعجزة ، فقد عاد إلى سمعى وبدأت أتكلم كالأطفال وأتدرج في النطق إلى أن استعدت الحاستين كاملتين واستردت حقوق من الحياة ، فتعلمت وتثقفت ، وحاولت أن أرفع مستوى زوجى الشماس فلم أستطع ، فإن من اعوجاج الرجل مالا تملك أقدر النساء تقويمه

وفكرت أن أنفصل عنه . فلم يقدر أبى على نسيان جميله ونسب إليه الفضل فى شفائى ، إن حقاً وإن باطلاً . وفوق ذلك فقد حسبه رجلاً وسلمه زمام ثروته

— ولماذا تدهشين من عرفان أبيك بجميله ؟

قالت : الحقيقة أننى عقيب الزواج ضاقت الدنيا فى عينى وتضرعت إلى السماء ، طالبة الغوث والنجدة ، ورأيت في نومي أنني أسمع وأتكلم . ففتحت عينى فإذا الحلم حقيقة . فسرى عني قليلاً وأنا فى أشد الدهشة والعجب

فضحكت وقلت لها :

— يا لك من جميلة تنكرين الجميل ...

فضحكت وقالت : ليس هذا ختام القصة فإن أبى سلمه زمام ثروته وفوض إليه الأمر كله فى التجارة والإدارة وظن أنه يستريح على ظهره كما قلت إننى أمزح على ظهره ، فخسر الأنوك المال والمصنع وضيع التجارة ، ورحنا نحن ضحية جهله وسخافة عقله . ولم نتمكن من إنقاذ شىء من ثروتنا غير هذا البيت الذى وهبه الدائنون لى لأن أكبرهم نصيباً كان يحبنى كإحدى بناته . وهو الذى أشار علينا باتخاذه نزلاً .

فأطرقت أنا بدورى . وكنت بين مصدق ومكذب ، لولا أنها حملت إلىّ تو الساعة صورها وهى طفلة ، وهى صبية ، وهى عليلة ، وهى بثياب الإكليل ، ووثائق المصنع ، وتاريخ والديها وصورهما . فلم يبق لدى شك فى صدق روايتها ، وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليل عند ما نظرت إلىّ نظرة غريبة وقالت :

— لا بد أنك يا دكتور قد تعبت ، فقد حملتك أعباء تاريخى فوق أعباء السفر . فانهض ونم نوماً سعيداً فقد أعددت لك فراشاً وثيراً . ونبئنى بما تشتهيه للإفطار حتى أعده لك بيدى

فقلت لها : عندما رأيت الغرفة والسرير قبل

أن أراك وأسمع حديثك تمنيت أن أرقد لأستريح . ولكن الآن لن يطيب لى النوم ..

فابتسمت وقالت : قم ونم . فلعلك ترى فى النوم خيراً مما رأيت فى اليقظة . فنهضت مترددا آسفاً ، كاسف البال حزيناً ، وقد تخيلت الفتاة الروسية التى تخدم فى المطعم راقدة فى فراش حقير فى غرفة ضيقة . وقد حملت ضميرى وزر اتهامها بما هى بريئة منه ، كما تخيلت راسين البائس الذى يشبه الكلاب العليمة [1] التى يلبسونها ثياب الرجال المضحكة لتمثل فى الملعب أدواراً قاسية كالقفز من حلقات ملتهبة أو ركوب دراجة محطمة وهى تنبح نبح الكلاب وتأتى بأعمال البشر خاضعة راضية قانعة بقطعة السكر التى تمتد بها يد مدربها القاسى ... وهو الآخر اتهمته وتخونته وظننت به الظنون ، ولم يكن إلا ساعياً فى إرضاء هذه الحسناء بجلب نزيل جديد . واشتقت على الرغم منى إلى الحب الذى حركته فىّ تلك المرأة القاسية المسكينة . ورسبت فى قرارة نفسى حثالة من الآلام والأوهام التى مرت بى من نصف النهار إلى نصف الليل بغير انقطاع . فتناولت يدها وصافحتها وأبقيتها فى كفى فترة ثم رفعتها إلى شفتى ، لأنى أحسست أنها كانت تنتظر ذلك منى وترغب فيه

وصعدت أمامى فى الدرج إلى أن بلغت غرفتى وقالت لى وهى تفتحها بيدها « ليلة سعيدة » وراحت فى الظلام تلتمس مرقدها . أين ؟ فى أحضان راسين أم فى حضن الوحدة والخيال ؟ وهى لاشك تفضلهما على حضنه ...

(١) Chiens savants تدرب على أعمال وحركات

فخلعت ثيابى ببطء وانطرحت على فراشى ، وكان التعب قد أضنانى فرحت بعد لحظة فى سبات عميق . وحلمت أن الباب قد انفتح وتسللت منه سيلين على أطراف أصابعها حافية فى سواد الليل ، وما زالت تدنو من فراشى وهى تكتم أنفاسها حتى شعرت بلهبها فوق جبينى الذى كان يتصبب عرقاً من الفرح والانفعال . وحلمت أننى لمست زر الكهرباء المعلق بخيط من حرير فوق رأسى فأضاءت الغرفة وفتحت عينى فإذا سيلين نفسها واقفة على قيد ذراع منى محمرة الوجه لا تنطق ولا تتلفت . وقفت أمامى المرأة التى رثيت لها واشتهيتها وجهاً لوجه وقلباً لقلب وجسداً لجسد ، فحاولت أن أتكلم فلم أستطع ، وبقينا فى صمت عميق أحدنا ينظر للآخر ولا يكاد يراه فخشيت فى لحظة وجل أن تكون قد عاودها البكم فى أثر الانفعال وأنه قد تعداها إلىّ ! وحاولت أن أنطق لأطمئن على سمعى ونطق ولكننى خشيت انفضاح الأمر فى هدوء الليل

فمددت إليها يدى وأنا لا أصدق أنها تقبض على شىء من لحم ودم وخشيت أن يكون تمثال الجمال الذى أمامى خيالاً أتلمس إليه الطريق فلا أجده . ولكننى جذبتها إلىّ فدنت منى وهى تتمنع تمنع الراغبة وتحاول أن تكسر من طرفها فلا تستطيع ، وأجلستها على حافة الفراش وقلت لها فى همس وقلبى يضطرب وفؤادى ينتفض :

أنت جئت إلىّ وأنا أفكر فيك . إننى لأستحق هذه المجازفة الكريمة . فماذا أقول لك ؟ سيلين سيدتى ... تكلمى .

فتبين الأسى فى وجهها وحاولت أن تتكلم

فأعياها النطق الصريح . وأطرقت برأسها وتحاملت على نفسها وانفجرت بالبكاء

فتناولت رأسها وكانت عيناها مغمضتين الاقليلا والدموع تنهمر منهما بغير نشيج وأدنيت وجهها الىّ محاولاً تقبيلها . فتمنعت في رفق وقالت :

— لا . لا . لم يؤن الأوان .

فخجلت وهدر الميل اليها فى مشاعرى هدير الغليان وقلت لها :

— لماذا إذن جئتِ وتجشمت مشقة الدبيب ؟

فقالت لى : جئت لأننى لم أستطع أن أغمض عينى دون أن أراك ... وهيهات أن يهنأ لى عيش بعد الليلة بدونك

فقلت : أبهذه السرعة تشغلين ، وبرجل غريب الوجه واللسان وربما كان غريب القلب والأطوار أيضاً ؟

فقالت : لست غريباً عنى فان سبباً من أسباب القدر قد وصل حياتى بحياتك ومزج قلبى بقلبك وأوجد سراً بينى وبينك لم أجد مثله بينى وبين الرجل الوحيد الذى عرفته وهو زوجى

فابتسمت ابتسامة أساءت سيلين فهمها وتوهمت الشك يجول فى أطرافها فقالت :

— ثق أو لا تثق فلا ألومك ولا أرغمك على تصديقى . إننى على الرغم من زواجى عشر سنين ، لا أزال بكراً لم يمسنى رجل

قلت وقد أدهشتنى جرأتها : وهذان الملكان الطاهران ؟

قالت : أطفالى ! لقد ظننتك فهمت تلميحى لقد رزقتهما من رجل لا أحبه ومن لا أحبه لا أعرفه وكأنه لم يمسنى

فخجلت ولم أعتذر ، فان هواها غطى على عقلى فتركنى مضطربا فى الدائرة التى خطها حولى ، فسكت ثم تشجعت وقلت : ولكننى أتحرق شوقاً إليك وقد أعجبنى منك كل شىء : صوتك وجمالك وعيناك وقدك وذكاؤك . وقد جمعتنا المصادفة وألفت بين قلبينا حوادث غير مرقوبة وربطت بين نفسينا الطبيعة المواتية فى غفلة الأعين وهمود الأسماع

فقالت : أو تقيم طويلا فى جنيف ؟

فقالت : بقدر ما تسمحين لي أن أقيم

فقلت : أما فى هذا البيت فلا ، لا لأنه البيت الذي فيه ولدت وتزوجت ، ولكن لأننى لست فيه حرة ، ولا أقدر أن أخرج من الحصار الكثيف الذى يحجر علينا . وإن للحب غاية محتومة فلست أومن بالصداقة البريئة بين رجل وامرأة فى حميا الشباب ، وما الحب الذى يتخطى حدود الصداقة الموهومة إلا امتلاك واستئثار ، وهو الذى أشعر بأنك خلقته فىّ هذه الليلة

فقلت : مادمت قد ذكرت زواجك فلا بد أن تكون له حرمته فى نفسك : فكيف تستبيحين الجمع بين تلك الحرمة وبين الحب الذى تصفين

فقالت : أما الزواج فله الحرمة التي تذكرها وأكثر ، وأما الزوج فلا ، ولا سيما هذا الذى ألح على حياتنا بالشر ، وأنحى على سعادتى بالفقر ، حتى أوصلنا إلى مانحن فيه

فقلت لها : لقد قبلت شرطك . وغداً ...

فقالت لى : غداً نبكر يا صديقى إلى بحيرة ليمان نستجلى بهاءها ونخترق غابة بوازى[1] الحالمة نشنف أسماعنا فيها بتغريد البلابل فهذا فصل لقائها وموسم تحرقها ثم تذهب إلى بستان الأمواه النابقة[2] وفيه من الأشجار والأزهار ما يزيل عن نفسنا الحزن

وقد سيطرت عليها نشوة كادت تفقدها هدوءها ورزانتها . واستمرت فى حديثها قائلة : غداً يا قسيم ميلادى ننطلق إلى المدينة فنجول في أنحائها ونطوف بالمخازن الجميلة ثم نطير إلى قرسوا الضاحية القريبة فننعم بالخلوة ونقطف أحلى الثمار ونجد اللذة والسعادة . غداً أنطلق من الأغلال التى طال تقيدى بها فنسير جنباً إلى جنب فى شوارع المدينة الحبيبة حيث تختلط أصوات الليل التى حرمت من سماعها فى رفقة نفس حبيبة برنين الأجراس التى تدق فى عيد الفصح السعيد ...

وفى تلك الساعة سمعت صوتاً غريباً كأن يداً تنقر على درفة النافذة فصمتنا وكتمنا أنفاسنا وهممت بإطفاء النور فنهتنى بإشارة من يدها ، فنهضت فى خفة وحذر واتجهت نحو النافذة وفتحتها برفق بحيث أتمكن من رؤية ما وراءها فرأيت طيراً ضخما من طيور الليل يطير عائداً إلى وكره معششاً فى إحدى أشجار الكافور التى كانت تضطرب وتهتز ، وإن لم تكن هناك رياح عاصفة فأغلقت الدرفة وعدت إليها وطمأنتها وقلت لها : غداً

(١) Bois la boesie فى ضواحى جنيف

(٢) بستان بها أيضاً

ولكنها لم تتكلم ودقت الساعة الثالثة

فدنوت منها وعلى غرة منها ضممتها إلى صدرى فضمتنى بحرارة وقوة ما أحسست بمثلها من قبل ، وطبعت على فمها الملتهب قبلة لا أنسى لذتها وعبيرها ما حييت . وكنت فى ذهول فلم أشعر بسيلين وهي تتملص من ذارعى التي كانت حول خصرها ، فانطرحت على فراشى منهوك القوة ، آسفاً على مابدر منى ولكننى سعيد

ولا أدرى كم طال نومى

ولكننى تيقظت على صرخة واحدة لم تتكرر لم تكن صرخة إنسانية . ولكنها نزعت قلبى من صدرى ، وأنبأتنى بكارثة لا قبلها ولا بعدها ؛ ثم ساد صمت عميق . وفى تلك الفترة سمعت على النافذة نقراً كالذى سمعته عند ما كانت السيدة جالسة على فراشى ، فأضأت الغرفة ، ولبست بعض ثيابى ووقفت وراء الباب ؛ فإذا حركة وقع أقدام وصوت امرأة عجوز لم أسمعه من قبل يقول :

— آه ... ماذا صنعت بها أيها الشقى؟ وابنتاه ! جاستون . جاستون . أنظر ما فعل الشرير المجنون بابنتنا . فوهمت فى أول الأمر أن مجرماً ضالاً ، أو شريداً فاقد العقل قد سطا على الطفلة فيرجو[1]

ففتحت الباب وتقدمت بعض الخطى فرأيت باب الغرفة المقابلة لغرفتى مفتوحاً على مصراعيه وقد وقف فيها شيخان رجل وامرأة . وخرجت علىّ جانيت مستغيثة نائحة

(١) Virgo اختزال vrginie وهو اسم البنت

فقلت لها : أيقظى السيدة

فقالت : كيف أوقظها أنظر ؟ يا سيدى !

فخطوت وإذا بى أرى راسين راكعاً على الأرض وقد تدلت رأسه على صدره كالمشنوق ولم أكد أحول بصرى عنه حتى كدت أسقط من هول ما رأيت

سيلين ... نعم سيلين مطروحة على الفراش فى ثياب نومها وفى صدرها خنجر والدماء تجرى من بين نهديها كأنها خارجة من نافورة . ولم تكن بعد قد فارقت الحياة . وهي إذن التى صرخت تلك الصرخة الفاجعة الفاجئة التى مزقت أحشاء الليل

فلما تفجعت عليها وبكيت ، فتحت إحدى عينيها وقالت فى همسة سمعتها واضحة :

غداً ...! وأغمضت عينيها وصعدت روحها .

المطر الأحمر القانى ... والدافن والكنيسة والبستان . و ١٩ مارس عيد مولدى ومولدها ومصرعها

* * *

عدت إلى غرفتى وأنا أكاد أجن وأهلك من الحزن واللوعة والأمل الضائع والحسرة على شباب تلك التى لم أعرفها إلا ليلة واحدة وقد ملأت بالى بعد فراغه ، ومدت أفق خيالى وراء ما كنت أرجو . وبعد نصف ساعة عند بزوغ الصباح أقبلت الشرطة بخيلها ورجلها وكلابها وحقائبهم العازلة وأدوات التصوير والسلاسل والأغلال ، وفى أثرهم قاضى التحقيق ورجال السلطة والطبيب الشرعى وأعوانه ونفر من الصحفيين والمصورين

ولكن الخطب الجسيم الذى حل بالقتولة كان أهون مما تصوروا فى شأن القاتل فقد كان متلبساً بالجريمة ومعترفاً بها ولكنه لم يبررها ولم يعتذر

وكان علىّ أن أنتظر حتى تدفن سيلين فى مدافن سان جورج وأن أسمع دقات أجراس الكنيسة ، لا تحية لعيد الفصح المرتقب ، ولكن إيذاناً بطلب الرحمة لروحها !

محمد لطفى جمعة

فى أصول الأدب

للأستاذ احمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد فى نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية طريفة فى الأدب العربى وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ العرب منه . العوامل المؤثرة فى الأدب . أثر الحضارة العربية فى العلم والعالم تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث كتب فى هذا الموضوع إلى اليوم . ثم قواعد تفصيلية للرواية التمثيلية الخ الخ ...

يطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنه ١٢ قرشا

الرســـالة

فى سنتها السادسة

على الرغم من ارتفاع أثمان الورق هذا الارتفاع الفاحش ، وبالرغم من تقدم الرسالة هذا التقدم المطرد ، وبالرغم مما سنبذله فى تحسينها من الجهد فى عامها الجديد ، سيبقى اشتراكها كما هو : ستون قرشاً فى الداخل ، وجنيه مصرى فى الخارج ، وتقدم إلى من يدفعه فى أثناء شهر يناير المقبل مجلة الرواية مجاناً

الروايـــة

وليست الرواية هدية ضئيلة القدر ، فإنها تصدر جميلة الطبع والوضع فى سبعين صفحة ، وهى المجلة الوحيدة التى تقرأ فيها القصة العربية الفنية مكتوبة بأسلوب بليغ مشرق ، أو القصة الأوربية الرائعة مترجمة بلسان أمين صادق . وحسبك دليلاً على قوتها وقيمتها أن مجموعة سنتها المنصرمة تشتمل على ٣٤ أقصوصة موضوعة ، و ١١٦ أقصوصة منقولة ، وثلاث مسرحيات ، وعلى النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لألفريد دى موسيه ، وملحمة الأوذيسة لهوميروس ، وكتاب يوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم . أما مجموعة السنة القادمة فستكون أروع وأجمع وألذ . واشتراكها وحدها ثلاثون قرشاً فى مصر ، وخمسون فى الخارج

اشتراكات الطلبة والمعلمين الالزاميين

يشترك الطلبة والمعلمون الالزاميون فى الرسالة وحدها بأربعين قرشاً ، وفي الرواية وحدها بعشرين قرشاً ، وفيهما معاً بخمسة وخمسين قرشاً . ويضاف إلى ذلك خمسة وثلاثون قرشاً فرق البريد لاشتراكات الخارج . ويجوز أن يقسط هـذا المبلغ أقساطاً تبتدىء فى يناير وتنتهى فى شهر مايو من سنة ١٩٣٨

الاشتراك فى الرسالة

يقوى عقلك ، ويغنى ثقافتك ، ويطلعك على تطور الفكر العالمى الحديث

والاشتراك فى الرواية

يربى ذوقك ، ويرهف شعورك ، ويمتعك بروائع الفن القصصى الحديث